

خطبة جمعة ١٤٣١ / ١١ / ٠٧

اعْدِلُوا بَيْنَ أَوْلَادِكُمْ

للشيخ عبد الحميد الرفاعي الجهني

حفظهما الله تعالى

النسخة الإلكترونية (٢)

الشيخ لم يراجع التفريغ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شَرِّهِ وَأَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُونُ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ءَ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب].

أما بعد..

فإنَّ أصدق الكلام كلامُ الله، وخيرَ الهدي هديُّ محمدٍ -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ-، وشرُّ الأمور محدثاتها، وكلُّ محدثةٍ بدعة، وكلُّ بدعةٍ ضلالة، وكلُّ ضلالةٍ في النار.

○ عباد الله..

إِنَّ قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ﴾ [التغابن: ١٤]، يدخل في هذه الآية صوراً عديدة يحذر الله عباده المؤمنون منها.

ومن ذلكم -يا عباد الله- من هذه العداوة التي تكون من الزوجة أو من الولد: الظلم الذي يكون في داخل الأسرة، ويكون في البيت، فإنَّ بعض الآباء ربَّما فضَّل بعض أولاده، فيكون في الحقيقة هذا الولد المفضَّل وهو الأحبُّ إلى قلب أبيه عدوًّا لوالده، وهذا داخل في الآية مع أنه يحبُّه ويفضِّله ويقدمه على إخوته.

فاعلم أيُّها الأبُّ أنَّ هذا الولد المحبوب إليك هو عدو لك؛ لأنَّه حملك على الظلم؛ لأنَّه حملك على تظلم إخوته، محبته هذه حملتك على الظلم وعلى الإيثار الذي لا يحبُّه الله عزَّ وجلَّ، وهذا من الأعداء، هذا يدخل في قوله سبحانه وتعالى: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا

لَكُمْ فَأَحْذَرُوهُمْ ﴿التغابن: ١٤﴾.

وهذه العداوة كما قال ابن القيم وغيره وأهل العلم: إن هذه العداوة ليست هي عداوة البغضاء والشحناء وإنما قالوا هي عداوة المحبة الحاملة على التقصير في حقوق الله عز وجل. وهذه عداوة غريبة لا يلتفت إليها كثير من الناس، وأي شيء محبوب إلى نفسك: من زوجة أو ولد أو مال أو أي شيء في الدنيا، محبوب إلى نفسك، يحملك على التقصير والتفريط في طاعة الله - عز وجل - فاعلم أنه ليس حبيباً وليس محبوباً إنما هو عدو؛ إذ حملك على التقصير في حق الله - عز وجل - وحملك على الظلم، وربما على الظلم والعدوان.

فهذا في الحقيقة ليس حبيباً وإنما هو عدو كما قال عز وجل.

○ فيا عباد الله..

إن الصحابي الجليل بشير بن سعد رضي الله عنه أحد الأنصار جاء إلى النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - وكان قد نحل ابنه النعمان - والنعمان بن بشير من الصحابة الذين يروون الأحاديث كثيراً؛ ولكنه كان شاباً صغيراً في زمن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - غلاماً وقيل حائطاً في اختلاف الروايات، وهبه هبة فقالت أمه عمرة بن رواحة: لا أرض حتى تشهد على ذلك رسول الله.

يعني لا بد أن تشهد على هذه الهبة وعلى هذه العطية النبي - عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ - من باب التوثيق، فذهب بشير بن سعد إلى رسول الله وقال: يا رسول الله، إني نحللت ابني هذا - وكان معه النعمان، وكان صغيراً - هبة فأردت أن أشهدك، فإن أمه عمرة بن رواحة قالت: لا أرض حتى تشهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال له النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - : «يا بشير ألك ولد سوى هذا؟» فقال بشير بن سعد: نعم يا رسول الله، فقال له: «أكلهم نحللتهم مثل هذا»، تأملوا في السؤال، كل هؤلاء الأولاد الذين عندك أعطيتهم كما أعطيت هذا الولد؟ قال: لا يا رسول الله، ماذا قال النبي لما قال: لا؟ قال له النبي - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ - : «فأشهد على هذا غيري، فإنني لا أشهد على جور»، ابحت عن شاهد غيري، هذا جور، هذا ظلم.

«فإنني لا أشهد على جور» هذا هو الظلم يا عباد الله.. فذهب بشير بن سعد رضي الله عنه وردت تلك الصدقة.

فكان ممّا أوصاه به رسول الله صلى الله عليه وسلم وصية عظيمة - يا عباد الله - قال له: «يا بشير أيسرك أن يكونوا إليك في البرّ سواء؟» ألا تحب أن يكونوا كلهم بررة بك، يحبونك يبرونك فأنت أبوهم؟ فقال: بلى، يا رسول الله. يعني قال: إذا كنت تحب أن يكون أولادك كلهم يبرونك ويحبونك كلهم، إياك أن تفضل. إياك أن تقدم، إياك أن تؤثر، تقدم هذا على هذا، تعطي هذا وتحرم هذا، لا، اتق الله..

لقد كان السلف الصالح يعدلون بين أولادهم حتى في القبلة؛ يعني تأملوا حتى في القبلة، أطفال صغار، كيف تقبل هذا ولا تقبل هذا فيكون في نفسه!! السلف يعدلون حتى في هذا الشيء، يعدلون بين أولادهم حتى في القبلة، فكيف بالأموال، وكيف بالأشياء الكبيرة؟!

والله لنا قصة ولنا عبرة ولنا عظة في قصة يوسف، ماذا قال إخوته، كان يعقوب أبوه.

وهنا لا بد أن نعلم أن التفضيل لم يكن حراما في شريعتهم، التفضيل بين الأولاد إنما هو حرم في شريعتنا نحن في الإسلام، وإنما كان في شريعتهم كان جائزا، يعني أن يقدم الأب ولدا على ولد هذا لم يكن محرما عندهم، لو كان محرما عندهم ما فعله يعقوب وهو نبي الله، هذا لا بد أن نتنبه له.

ولكن مع ذلك، ماذا قال إخوة يوسف؟ ﴿إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِمَّا نَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [يوسف: ٨]، تأمل! كيف الذي في نفوسهم من الشحنة، من الغل، لماذا؟ التفضيل، الإيثار، هم الآن اجتمعوا عصبه، أقوياء، رجال، يقولون: هذا أبونا يقدم يوسف ويقدم أخاه، ونحن الرجال ونحن العصبه، ثم طعنوا في أبيهم وقالوا: ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ يعني كيف يقدم هؤلاء الأطفال الصغار، يوسف كان طفلا صغيرا، كيف يقدم هؤلاء الأطفال الصغار يحبهم ويؤثرهم ويقدمهم علينا ونحن الرجال؟! ﴿إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ ولكن انظر الأثر، تأملوا في الأثر في الطامة شيء مدمر قالوا: ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا﴾ خذوه في مكان بعيد حتى يقتل أو يموت ﴿أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ [١] ما هو الحدث من قتل يوسف؟ هذه جريمة عظيمة أن يقتل الإنسان أخاه، قالوا: حتى ﴿يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ﴾ هذا الذي في نفوسهم.

○ فيا أيها الأب.. اتق الله.

انظروا ما الذي كان يختلج في نفوس إخوة يوسف لما كان أبوهم يفضل يوسف وأخاه عليهم حتى أنهم هموا بقتل يوسف أو أن يطرحوه في أرض بعيدة وهو طفل وهو أخوهم.

لماذا؟ التفضيل، الذي يؤثر والذي يفسد والله إنه هنا، الذي حرّمه الرسول ﷺ وسمّاه جورا، وقال لبشير بن سعد: «أذهب أشهد على ذلك غيري» هذا من باب التّديد والتّرجر لهذا العمل «فإني لا أشهد على جور».

○ فيا أيها الأب..

أتق الله في أولادك، ولا سيما إذا كان الأب له زوجتان أو أكثر.. فإنه إذا مال إلى زوجها فضل أولادها وقدم أولادها، وهذا والله الظلم.

اتق الله.. الكلُّ من صُلبك.. الكلُّ أولادك، إذا ملت إلى زوجة وقدمت أولادها فاعلم أن هذه الزوجة التي تحملك على أن تفضل أولادها أنها عدوة لك، هذه عدوة، وسوف تضرك عند الله عز وجل، وكذلك أولادها أعداء لأن محبتهم وإيثارهم تحملك على الظلم.

نسأل الله السَّلامة والعافية، اللهم أصلح أحوالنا يا رب العالمين، واغفر ذنوبنا يا أكرم الأكرمين، واستر عيوبنا.

عباد الله.. أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم ولسائر المسلمين من كل ذنب، فاستغفروه، إنه هو الغفور الرَّحيم.



[الخطبة الثانية]

الحمد لله ربّ العالمين، وصَلَّى اللهُ وسلَّم وبارك على نبيِّنا محمَّد، وعلى آله وأصحابه أجمعين .
أمَّا بعد..

○ عباد الله..

إنَّ مسألة التَّفْضِيل بين الأولاد تكلَّم فيها الفقهاء ويُنَوِّون أنَّ هَذَا التَّفْضِيل لا يجوز إذا لم يكن هناك مبرر له، وإنَّما فقط يُعْطَى فقط لمجرّد حبه وإيثاره، هَذَا الذي لا يجوز؛ ولكن قال العلماء: إذا كان هناك مسوِّغ لإعطاء الولد فلا بأس؛ كما لو كان الولد مثلاً مريضاً فيعالجه ويعطيه من المال حتى يُعالج لا حرج.

أو إذا كان الولد مثلاً أعزب وإخوانه متزوِّجون ويحتاج إلى الزواج قالوا: يزوجه ويعطيه من المال حتى يزوجه ولا بأس.

أو كان الولد يريد أن يدرس ويُكْمَل دراسته وإخوته مثلاً موظفون ليسوا بحاجة فيعطيه أيضاً حتى يكمل دراسته.

إذن الدَّفْع لبعض الأولاد لسبب لا بأس به.

أمَّا العُطِيَّة والهبة التي لمجرد فقط أنه يحبه، كل إخوته بحاجة، كل إخوته مثله، لماذا يُعْطَى هذا ويحرم هذا، هذا هو الظُّلم، وهذا هو الجور الذي نهى عنه النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ-، وعلى الأب أن يحذر من هذا، وأن يعدل بين أولاده حتى يكونوا إليه في البرِّ سواء.

أتحب أن يكون كلُّ أولادك يحبونك ويبرُّونك ويحسنون إليك، ويدعون لك، أتحب ذلك؟! إذن يجب عليك أن تعدل بينهم كما قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

اللَّهُمَّ اغفر لنا ذنوبنا يا رب العالمين، اللَّهُمَّ اغفر لنا ذنوبنا واستر عيوبنا، وطهّر قلوبنا يا رب العالمين، اللَّهُمَّ طهّر قلوبنا يا رب العالمين.

اللَّهُمَّ اغفر ذنوبنا، وكفر عنّا سيئاتنا، وتوفنا مع الأبرار، اللَّهُمَّ اجعلنا من أهل العدل والإنصاف في أنفسنا وفي أولادنا وفي أهلينا وفي جميع النَّاس يا رب العالمين.

اللَّهُمَّ اغفر للمسلمين والمسلمات، وللمؤمنين والمؤمنات، الأحياء منهم والأموات.
والحمد لله ربّ العالمين.

